خصائص

التفكير الفرنسي

لعثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

﴿ مقدمة ﴾ — البحث في خصائص التفكير الفرنسي مسألة جديرة دائما بالعناية ، وخصوصاً في الأحوال التي تجتازها البلاد المصرية ، وفي الوقت الذي يجمل أن يضع الكتاب والمفكرون أمام أعين الناس أنماطاً ونماذج مختلفة للتفكير في البلاد الأجنبية ، لعلنا نهتدي بها في تدعيم قواعد صالحة لبناء تراث فكري مصري أصيل

ولكنا مضطرون قبل أن نعالج هذا الموضوع ، الى ان نلاحظ بعض الملاحظات الضرورية التي تفرضها علينا صعوبة البحث نفسه :

أولاً : أن محاولة تحديد الخصائص التفكيرية عند شعب من الشعوب شيء عسير في ذاته ، ولا تخلو احكامنا فيه من تعسف وتحيز ، وهو على كل حال أمر يفلت من متناول الدقة العلمية ، ولا نطمع في أن نصل من ورائه الى قوانين ثابتة أو أحكام مطلقة

ثانياً : انه ليس من مفكري الفرنسيين من رضخ لفكرة واحدة أن افكاره ونظرياته معرض للخصائص والاتجاهات العقلية لأمته وحدها . وليس منهم من حكم ان هنالك شعباً مختاراً للفلسفة والتفكير ، وانه ينتمي الى ذلك الشعب . بل جميعهم كانوا يعتقدون أو كانوا يريدون أن يفكروا أو ان يتفلسفوا ليقرروا لا بحقيقة قومية أو وطنية ، بل كانوا يفرضون دائماً ان افكارهم ونظرياتهم يمكن أن تسير وأن تذيع حيث وجد عقل بشري يتفهمها ، وحيث وجدت شواهد انسانية تضبطها وتحققها . ولو فرضنا أن أحداً قال في مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم إنهم نظرياتهم وأفكارهم تحمل العقلية الفرنسية أو يحملون روح أمتهم ، فهل كانوا يحملون ذلك الكلام على محمل المدح ؟

كلا ما نظن ذلك . بل أكبر الظن أنهم كانوا يعترفون بأن الشعوب كالأفراد لها بعض الخصائص والنزعات العقلية . لكنهم كانوا يحتجون بأن شروط المعرفة في ذاتها انما تحد من مهمة تلك العناصر العامضة غير المعينة التي تتألف منها عقلية من العقليات . أليست الكلمة

الأولى في الفلسفة عند ديكارت هي قوله بأن العقل أو ملكة الحكم السديد مقسمة بين البشر قسمة عادلة ، وأنسبة الناس منها متساوية ، ولا فضل فيها لأمة على أمة ؟

جميع هذه الاعتبارات مهما يكن من وجاهتها لا تحول دون معالجة الموضوع : فإنا نعتقد أنه يبقى على الرغم مما ذكرنا أن التفكير الفرنسي في جملته يبدو للمؤرخ المنصف وكأن له طابعاً خاصاً يميزه مما عداه . وهذا الطابع الخاص يدل على أن نزعات قومية هي التي صورته وتعهدته حتى كمل نماؤه وبسق فرعه وامتد ظله

وإذن فسنحاول في الصفحات التالية أن نبين ما عسى أن يكون للعقلية الفرنسية من خصائص أثرت في اتجاهات التفكير الفرنسي بوجه عام

ولكن قبل أن نفحص عن خصائص التفكير الفرنسي ونزعاته ، يجمل بنا أن نلقي نظرة سريعة على ما يحيط بذلك الفكر ، لكي يتسنى لنا معرفته ووضعه في منزلته الخاصة . وسنسلك في بيان ذلك سبيل الموازنة الاجمالية بين اتجاهات التفكير الفرنسي وبعض الاتجاهات الرئيسية الأخرى ذات الأثر في الحضارة العقلية الحديثة

﴿ العقلية الانجليزية ﴾ — العقلية الانجليزية عقلية واقعية ، دقيقة « وضعية » مضبوطة . ولكنها لا تخلو في بعض الأحيان من ضيق الأفق . ولذلك وجدناها وقد استطاعت ، منذ القرون الوسطى حتى العصور الحديثة بلا انقطاع ، أن تبسط تلك الفلسفة التجريبية المشهورة التي تلتزم التجربة المتداولة اليومية ولا تحيد عنها . ومن أجل ذلك رأيناها وما كان أسرعها الى الانسياق في تيار الشكك والارتياب ، فلم يعصمها منه إلا إيمانها بالعمل وما له من قيمة وأثر في الحياة ، ورأيناها أيضاً ترحب بمذهب « البراجماتزم » الاميركي ، ذلك المذهب الذي يسعى بمسائل التطبيق والعمل ويقدمها على مسائل التأمل والنظر

﴿ العقلية الالمانية ﴾ — أما العقلية الألمانية فعقلية مبتافيزيقية عميقة بلا نزاع . ولكنها عقلية ميالة الى المذاهب الصافية ، ميلها الى الغلو في المجردات ، وسلوك الطرق الملتوية . ولذلك رأيناها وقد طاب لها البقاء على مذهب « الايديالزم » ، ذلك المذهب المثالي التصوري المتعالي الذي يجعل من الكون على نحو ما شيئاً خلقه الانسان وأبدعه الفكر الانساني ، ومعنى هذا عندها في أغلب الأحيان : الفكر الالماني

لننظر الآن في الخصائص التي تميز بها التفكير الفرنسي

١ — ﴿ القصد والاتزان ﴾ : لعل من اظهر خصائص العقلية الفرنسية اتزان القوى واعتدال الملكات المتعارضة من ملكات النفس البشرية : فالفرنسي ذو ذهن تحليلي يميل الى المنطق . ثم هو ذو ذهن تأليفي ، يؤلف بين المثالي والواقعي ، ويجمع بين القدرة على العمل والنزوع الى التأمل والنظر ، ويؤلف بين جرأة الفكر وحرارة الشعور ، ويضيف الى تقديس

«الوضعي» الذي لا يقبل شيئاً من دون نقد أو تمحيص، مع اصطناع البحث دائماً لامتحان الوقائع، الاعتقاد الراسخ والايمان المتقد بالحقائق الروحية التي تدعو الانسان دائماً الى ان يتخطى الطبيعة، ومن أن يجاوز نفسه ساعياً وراء الحق والخير والجمال

كل ذلك يبدو للمتأمل منسجماً مندمجاً في الفكر الفرنسي. وذلك كله حيّ واضح في آثار تلك النفس الفرنسية وهو الذي أوحى الى «ديكارت» ان يكتب «المقال في المنهج» والى «باسكال» ان يكتب «الخطرات»، كما أوحى الى «باستير» أعماله الباهرة والى الفنانين الفرنسيين آثارهم الرائعة

فالذي يلاحظ إذن عند مفكري فرنسا هو التئام ناحيتين قلّ ان تجتمعا في شخص ولكنهما مع ذلك تميزان العقلية الفرنسية اذا توافر لها الاتزان والاعتدال: — الصفة الاولى هي ادراكهم لمعنى «الوضعي»، وذلك عبارة عن عناية المؤلف بأن يبقى على اتصال بالوقائع لا يبتعد عنها، وحرصه دائماً على أن يقرن القواعد بالتجربة. ولقد أرادت الفلسفة الفرنسية أن تحمي نفسها من الأحلام والاوهام، فاتصلت بالعلوم الوضعية أوثق اتصال. وهذا هو السبب ان أغلب كبار الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين كانوا، مع اشتغالهم بالفلسفة، إما علماء هندسة او علماء طبيعة او اطباء او رجال أعمال وصناعات معينة. — أما الصفة الثانية فهي ادراكهم لمعنى المثل العليا، وايمانهم بحقيقتها. وهذه الصفة عبارة عن ملكة التمييز الروحي، والاشتغال بشؤون الاخلاق وأسسها الميتافيزيقية. ولقد رأت الفلسفة الفرنسية، حتى عند الوضعيين أنفسهم، ان العلوم الوضعية غير كافية، وأن العلم، بدون الذهن الذي يفسره تفسيراً فلسفياً، يظل ناقصاً مهما يكن من قوته في مجاله الخاص. ومن أجل هذا وجدنا من كبار علماء الفرنسيين من يكتبون مخترعاتهم ومكتشفاتهم بتأويل العلم الذي يرعون فيه تأويلا فلسفياً. ولا حاجة بنا الى أن نذكر في هذا الصدد «كلود برنار» في الطب التجريبي، و«هنري پوانكاريه» في الرياضيات. على ان معنى «الوضعي» ومعنى المثل الأعلى معنيان يكمّل أحدهما الآخر. وهما يتمشيان جنباً الى جنب عند مفكري الفرنسيين، بل يسيران عندهم صديقين متجانبين في ظل العقل أو ملكة الحكم السليم

٢ — «الحكم السليم» عاون على الفرنسي شدة شغفه بالمنطق، كما عاونه عليه الله تعوزه الحرارة الصوفية. وانه يريد دائماً أن يعرف على وجه التدقيق لمَ يعمل ولِمَ يناضل ولِمَ يموت. ربما كان هذا عيباً متأصلاً في الفرنسيين. ولكن على كل حال تقابله مزية أصيلة اختصت بها فرنسا. وهي ما يسمى بالفرنسية «bon sens» أو ملكة الحكم السليم، وهي تلك الملكة العامة التي يضعها الفرنسي في خدمة المثل الأعلى، وهي عبارة عن القدرة على صحة

الإحساس بالحقيقة الكاملة ، والحكم على الأمور أحكاماً سديدة ملائمة لصريح العقل ، وهي أخيراً الحدس الصائب في ما هو موجود، وما هو حق، وما هو خير . وميتافيزيقا الفرنسيين قائمة على الحكم السديد ، وهذا ما يجعل لها قوة لا تُبارَى

وليست عبقرية الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين إلا كذلك المعنى الذي نجده متجلياً عند فلاحي فرنسا ، مغروساً في أصالهم البيرمية . ويخطر ببالي في هذا المقام كلمة لكاتب فرنسي معاصر هو « جان جيرودو » إذ قال يوماً : إن الثانيا لها « جوته » ، ولكن موطن الحرك ببلدة « كركيران » في « البروڤانس » هو جوته !

أراد « جيرودو » بهذه الكلمة المختزلة التي لا تخلو من مفارقات أن يعبّر عن هذه الفكرة : وهي أنه إذا كان التعمد والتوازن في الثانيا من أندر الأمور ، فإنه في فرنسا كثير مألوف . ففرنسا منذ زمن طويل هي بلاد الحكم السديد الذي تحدّث عنه فيلسوفها ديكارت وأشاد به أيما إشادة . والحق أن من أتيحت له الفرصة لأن يخاطب الناس في تلك البلاد عجب من ذكاء الجمهور واعتدال أحكامه ، وإصابة نظراته : الجمهور هناك يكاد أن يفهم كل شيء ، ويكاد أن لا يفيب عنه شيء من دقائق الأمور ، والفرنسي حيوان ناطق بمعنى الكلمة !

٣ — ﴿ البساطة والوضوح ﴾ ولعلّ من أهم الصفات التي أصبحت عنواناً للعقلية الفرنسية مبلغها الى التماس الوضوح . ومن خصائص التفكير الفرنسي منذ نشأته حرصهُ على تحليل الأفكار ، بل وتحليل المشاعر ، الى عناصر واضحة متميزة ، وميلهم في التعبير عنها اللغة المتداولة الجارية . ولذلك وجدنا أكثر الفلاسفة الفرنسيين من كبار الكتّاب قد استطاعوا أن يعبروا عن الأفكار الواضحة في لغة واضحة

ومن هنا كان أول ما نلاحظه حين نقرأ كتاباً فلسفياً فرنسياً هو بساطة الأسلوب وسهولة العبارة : هذا إذا استثنينا « اوجست كنت » وعدداً قليلاً من المفكرين في النصف الثاني للقرن التاسع عشر — وهؤلاء إنما خضعوا لتأثير ألجني فبعدوا عن الوضوح الفرنسي الموروث — استطعنا أن نقول قولة « هنري برجسون » : إن الفلسفة الفرنسية قد سارت دائماً على وفاق مع مبدأ القائل : « ليس هنالك فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة إلا ويستطاع ، بل ويحسن ، التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة » . وليس هذا رأي الفلاسفة الفرنسيين وحدهم ، بل هو أيضاً رأي الجمهرة من كتّابهم . قال « بوالو » :

« إن ما أجدت تصوره استطعنا أن نعبر عنهُ تعبيراً واضحاً »

« وجاءتنا الألفاظ المعبّرة عنه طائعة مختارة »

Ce que l'on conçoit bien s'énonce clairement.
Et les mots pour le dire arrivent aisément.

فالكتاب الفرنسيون يتوخون الوضوح دائماً ، وهم لا يعتقدون انهم بهذا يحطون ، أو يستحقون ما قد يرميهم به بعض خصومهم من أنهم سطحيون ! لانهم لا يأخذون بذلك الوهم الذي استولى على بعض المفكرين ، فجعلهم تقيس عمق الفكر بغموض التعبير . والواقع ان الفرنسيين على حق : فليست كل المياه الموحلة بالطين مياهاً عميقة ، ولا كل المياه الصافية مياهاً سطحية !

وبفضل الوضوح في الفكر والعرض ، استطاع مفكرو الفرنسيين أن يقرّبوا من متناول كل انسان مثقف ، أرفعَ الافكار في العلم وفي الميتافيزيقا ، وأعمق المعاني والقواعد في علم الاخلاق . واذا كان من اللازم لتقدير ما في فكرهم من عمق ، ولتفهمه حق التفهم ، أن يكون القارىء على دراية بشيء من الفلسفة أو العلم ، فانهُ ليس من رجل مثقف إلاّ ويستطيع أن يقرأ أهم مؤلفاتهم وأن يفهمها وأن يصيب منها نفعاً

والفلاسفة الفرنسيون حين احتاجوا الى وسائل للتعبير جديدة ، لم يصنعوا ما صنع البعض في بلاد أوروبية أخرى حين أكثروا من خلق المصطلحات الجديدة ، بل عمد الفرنسيون الى التأليف بين الكلمات المستعملة تأليفاً يعطي تلك الكلمات معاني جديدة . وهذا يفسر لنا كيف أن ديكارت وباسكال وروسو قد زادوا في قوة اللغة الفرنسية ومرونتها ، سواء كان موضوع أقوالهم الفكر أو الشعور

ونحن مضطرون أن نلاحظ مع « هنري برجسون » ايضاً ان تعقيد اللفظ وغموض الصورة والالتجاء الى المصطلحات الخاصة ، كل ذلك يكاد أن يكون دائماً « في منزلة القناع يلقيه المؤلف على فكر لم يوفق بعد الى أن يستبين ذاتهُ تمام الاستبانة » والفكرة التي استطاع صاحبها أن يهتدي عليها لابد أن يعبر عنها بسهولة وبساطة . وهذه القاعدة صحيحة حتى في الافكار الميتافيزيقية العميقة

٤ — ﴿ الى الجمهور ﴾ ذلك ان مفكري الفرنسيين لا يكتبون عادةً لطبقة من المتخصصين ، وانما يتوجهون الى الجمهور ، بل الى الانسانية عموماً . ولقد ظلت الفلسفة الفرنسية دائماً بأن تتكلم لغة الناس الشائعة ، فلم تكن امتيازاً لطبقة دون أخرى ، بل ظلت خاضعة لمراقبة الجمهور ، كما ظلت على اتصال مستمر بالعلوم وبالحياة . فمارسها رجال كانوا علماء نفس ، وعلماء حياة ، وفيزيقيين ورياضيين . وهذا الاتصال المستمر بالحياة وبالعلم وبالجمهور وبالحس العام قد بثَّ فيها خصوبة ، كما منعها من أن تلهو مع نفسها ، ومن ان تتكاثف تأليف الاشياء تصورات ومجردات ، كما هو الحال في بعض الفلسفات الاخرى . وبهذا نفسر الاثر الذي كان لمفكري الفرنسيين ، لا في فرنسا وحدها ، بل في الانسانية

بأسرها ، وبه تفسر ما في مذاهبهم من قوة الذيوع ، ونقرر بأنه توجد فلسفة تفوق الفلسفة الفرنسية في اشتمالها على عناصر بشرية عامة

٥ — ﴿ التفور من المذهب ﴾ وطبيعي أن نرى الفكر الفرنسي الذي كان دائم العناية بالقصد والاتزان كما قلنا ، يتوجس من كل ضخامة وجمود . نجد في بعض البلاد الاوربية الأخرى ما يشبه المغامرات المنطقية والمجازفات الجدلية . لكن الفكر الفرنسي انما أراد أن يكون صديقاً مخلصاً للكلي وللعام ، ولكن في صورة الفكرة الرنانة الجوفاء

من أجل هذا قلما نرى عند الفرنسيين فلسفات نشأت اجابة عن مشكلات معينة في مذاهب . والمذاهب المغلقة قليلة في الفلسفة الفرنسية . ويحق ان فلاسفة الفرنسيين اذا كانوا ميالين الى المنهج ، فهم قليلو الميل الى المذهب : فتراهم لا يحبون ان يجعلوا من البناء الذي يقيمونه بناءً مغلقاً ، يدخل فيه كل شيء اختياراً أو اضطراراً كما هو الشأن عند الميتافيزيقيين من الالمان

ومفكرو الفرنسيين ، اذ يشعرون برسالتهم الاجتماعية ، لا يركنون الى تكاثف اقامة المذاهب ، بل يميلون الى نقل الفلسفة الكامنة ، فلسفة الامة ، تلك الفلسفة المؤلفة من خواطر العالم والفنان ورجل الاعمال والصانع ، وتفكير جميع من كان لهم تجربة مباشرة للحياة وللاشياء . ولذلك نجدهم في ان يكونوا في سلوكهم تعبيراً من التعبيرات التي تمثل النزعات الفرنسية والنزعات الانسانية معاً

وكما تنفر العقلية الفرنسية من ان تلبس ثوب مذهب ، نجدها تنفر من ان تتخذ صورة « الدجماطيقية » ، اي التعيين المتعصب الذي يريد أن يعرض الرأي على الناس فرضاً ، كما أنها تنبذ الاسراف في التشكك والارتياب : فنهجها بعيد عن منهج « هيل » بعده عن منهج « كانت »

وليس معنى هذا ان الفلسفة الفرنسية عاجزة عن أن تشيد اذا ارادت ، بناءً شامخاً . بل لعل فلاسفة الفرنسيين رأوا ان اقامة المذهب شيء يسير : اذ ان من اليسير الذهاب بالفكرة الى غايتها القصوى . لكن الصعوبة انما تكون في الوقوف بالاستنباط حيث ينبغي أن يقف ، وفي توجيهه كما ينبغي . بفضل تعميق العلوم الخاصة والاتصال المستمر بالحقائق . قال « بسكال » : ان « روح الهندسة » لا تكفي التفلسف ، وينبغي أن نضيف اليها « روح الدقة » : وروح الهندسة هي روح الاستدلال المنطقي المحض . أما روح الدقة التي يريدها « بسكال » فهي فن من الفنون ، هي فن تفسير الحقيقة بالشعور بين مبادىء متشاركة في الظاهر ، ثم هي ادراك النظام الذي يتجاوز الاستدلال المجرد ، وهي فن تمييز الحدود التي

يجب على المنطق أن لا يتعداها . إن ديكارت ، ذلك الميتافيزيقي الكبير ، صرح بأنه لم يكن يفرغ للميتافيزيقا الا ساعات قلائل في العام : يريد بذلك ان البناء الميتافيزيقي والبناء المنطقي صلان يتمان عفواً وطبعاً ما دام الانسان مستعداً لهما

قد يقال ان الفلسفة اذا بعدت عن بناء المذهب بعدت عن قصدها ، وأن مهمتها هي التأليف بين الحقائق . لكنا نقول إن الفلسفة الفرنسية لم تعدل قط عن ذلك التأليف ، ولكنها لا تميل الى ذلك النحو من التنسيق الشائع عند الالمان مثلاً وهو عبارة عن اخذ هذه الفكرة او تلك ، ثم ادخال مجموع الاشياء فيها بالرضى أو بالقهر : اذ ان من الممكن دائماً ان نعارض تلك الفكرة بأخرى لنستطيع بها ان نبني ، وفقاً المنهج نفسه ، بناء مخالفاً ، ويكون المذهبان كلاهما مقبولين على السواء ولا يسهل التحقق من صحتهما . فتعديم الفلسفة بهذا المعنى هو وعياً بين الكتّاب والقراء

٦ — ﴿ ملكات بشرية ﴾ صحيح ان مفكري الفرنسيين وفلاسفتهم قد يجعلون الصدارة في تفكيرهم للعقل او للتجربة او للشعور او للحدس ، الا أن الملكات التي يعمدون اليها في اقامة مذاهبهم ليست ملكات مفارقة للطبيعة ولا متعالية عن البشر ، وانما هي ملكات معيارها في الادراك الانساني الذي يشترك فيه الناس جميعاً . وهذا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة لا يصد عن قراءته احداً ولو لم يكن من المتخصصين في الفلسفة : ذلك لأن الفيلسوف لا يسير من حدس محوط بالأسرار ، ولا من إلهام ملبد بالغيوم ، ولا من عرفان هبط عليه من السماء ، فطلع هو به على الناس معبراً عنه بالملاحن والرموز ، بل سار ديكارت من حدس بيّن واضح هو حدس « النور الفطري » ، نور العقل الذي هو « أعدل الاشياء قسمة بين البشر »

٧ — ﴿ الملاحظة الباطنية ﴾ ومن الصفات الثابتة عند مفكري الفرنسيين ميل كتّابهم الى علم النفس وتجاههم الى المشاهدة الباطنية . فبينما نجد كبار فلاسفة الالمان ، حتى « ليبنتز » و « كانت » ، لم يُظهروا ميلاً كبيراً الى علم النفس — ما عدا « شوبنهور » وهو الميتافيزيقي الالماني الوحيد الذي كان عالماً نفسياً تجد حتى الصدّ من ذلك انه ليس من فيلسوف فرنسي الا وقد تجلت فيه عند الضرورة القدرة على اختبار النفس الانسانية ومشاهدتها . ولا حاجة الى اطالة القول في الدراسات النفسية الدقيقة التي نجدها عند « ديكارت » وعند « مالبرانش » ، ممزوجة بنظراتهم الميتافيزيقية . ونظرة « كندياك » لم تكن أقل حدّة ونفاذاً الى الجوانب الخفية من النفس منها حين كانت تُلقي على الاشياء الطبيعية والهندسية والتعليمية . ولقد كان « كوندياك » عالماً نفسياً كما كان من المناطقة . ومن نقول إذن عن أولئك الكتّاب الذين فتحوا للتحليل النفسي طرقاً جديدة مثل « جان جاك روسو » و « مين

« دوبيران » ؟ ففي أبان القرنين السابع عشر والثامن عشر شغل التفكير الفرنسي بالحياة الداخلية، فهد لقيام الابحاث النفسية العلمية التي كانت فيما بعد من آثار القرن التاسع عشر. ونحن نجد من أشهر ممثلي علم النفس الخالص في عصرنا الحاضر فرنسا « هنري برجسون » وهو في الوقت نفسه فيلسوف كبير

فهذه الملكة الخاصة التي بها يحلو الكاتب ما بالأشياء من تعقيد وتركيب، ويصف ما بالحياة الباطنية من حركات عميقة، لم تفارق الأدب الفرنسي بوجه عام. ونستطيع ان نذكر مع « المقالات » لمونتني، و « انفعالات النفس » لديكارت، و « الاعترافات » لروسو، كثيراً من الكتب السيكولوجية الفلسفية والعلمية التي خلفها الاخلاقيون الفرنسيون. والواقع ان هذه المقدرة التي يصل بها الكاتب الى نفس الانسان في أعمق أغوارها، ليكشف ما تنطوي عليه من بواعث ونزعات، قد مارسها التفكير الفرنسي بمهارة جديرة بالاعجاب، وهذا مما يفسر بعض خواص العقلية الفرنسية واتجاهاتها: اذ ان معرفة النفس هي في منزلة قوة للنقد بازاء النظريات التي تقوم في المجردات، والتي تذهب مسرفة في فضائها بقدر خلوها من المعاني الحية المشخصة

٨ — ﴿ الحرية ﴾ والصفة الكبرى المميزة لروح الفرنسية والتي تتجلى عند مفكريهم وفلاسفتهم بصورة رائعة هي ايمانهم بأن الانسان حر وانه يمارس تلك الحرية بالفعل. ولا حاجة بنا الى بيان ما أدته فكرة الحرية هذه من دور هام، لا في تاريخ فرنسا وحدها، بل في تاريخ الشعوب والمدنية. وهذا ديكارت لا يخشى ان يذهب في هذه السبيل الى أبعد حدود النظرية، فنراه يطالب للانسان بالحرية باعتبارها امتيازاً خاصاً به، أو ان شئنا باعتبارها أهم صفة عند الانسان تكاد ان تجعله من أنداد الله

٩ — ﴿ الروحية ﴾ والعقلية الفرنسية أينما تفتحت وازدهرت، تجلت للناس عقلية روحية. ولقد كانت الروحية دائماً طابع فرنسا الخالص، قد تحتجب حيناً في أعماق الضمائر التي يلهيها عملها اليومي، وقد يقل بهاؤها حيناً في النفوس اثر العنيف نضال الافكار، ولكنها أحياناً كثيرة أخرى روحية مشرقة رفيعة. والروحية عند الفرنسي كامنة وموجودة دائماً، حتى حين يبدو وكأنه يتناساها. واتجاه التفكير الفرنسي في صميمه اتجاه روحي

على ان الروحية الفرنسية شيء بعيد كل البعد عن « الايديولوجيا » النظرية المجردة المتكبرة. ولذلك كانت العقلية الفرنسية، هي أيضاً كالعقلية الانكليزية، عقلية واقعية بأجل ما لتلك الكلمة من معان

واثبات الروح ليس انكاراً للمادة. بل هو بالعكس تحديد لمهمة المادة، حتى ليسع أن

يقال بأن هنالك الى جانب المادة وفوقها مبدأً يستخدمها ويهيمن عليها . فالمادي منكر للروح، لأنه منكر للحق ، إذ يراد هو القوة ، أما الروحي فلا ينكر المادة ، بل يخضعها للروح . وكذلك المفكر الفرنسي يعترف بوجود القوة وسلطانها . ولكنه يحاول أن يخضعها للحق

ولما كانت الصفة الكبرى من صفات التفكير الفرنسي هي كما قلنا الاتزان واصابة النظر ، فقد كانت عقلية فرنسا معتدلة عادلة، تسعى الى أن تضع كل شيء في موضعه ، وان ترد الامور الى نصابها : المادة في مرتبة الخادم ، والروح في مرتبة السيد الآمر . وذلك هو السبب في أن تلك العقلية المتزنة هي أولاً عقلية روحية

١٠ — خاتمة تلك بعض الصفات التي تبدت لنا ممثلة للتفكير الفرنسي في جملته . واليوم وقد بلغت الانسانية من تاريخها ساعة الفجيعة الفاصلة ، والآن وقد وُضعت بين الله والحيوانية فواجب عليها أن تختار أحدهما دون الآخر

فإذا كان الاشرف يصدر عن الأخس ، والاكثر يأتي من الاقل ، أي اذا كانت الحياة تأتي من المادة ، والروح من الحيوانية ، لم يكن الله إلا صنماً ، ولم يكن الانسان إلا حيواناً تطوَّر، وكان مصيره مصير البهيمية ، وكان ما له الموت المحقق ، واذن فقد أصبح وجودنا كله محبوساً في الحياة الراهنة وجوهرنا محصوراً في حدود الحيوانية

وذلك هو المآل الذي تجرّنا اليه بعض الاتجاهات الفكرية الحديثة المخالفة مخالفة صريحة لاتجاهات الفكر الفرنسي على نحو ما وصفناها . ألسنا نرى بعض مذاهب التفكير الاوروبية الاخرى وقد أحلت « التصورية » محل الروحية و « الصيرورة الابدية » محل الخلق ، والروح اللافردية محل النفس الفردية — ألسنا نراها قد أفضت الى انكار الله ، والى تأليه القوَّة الغشوم ، والى تقديس حاجات الابدان؟ وأليست بهذا قد انحطت الى مستوى الحيوانية الصرفة وأربت في ذلك حتى على قدماء الدهريين والوثنيين ممن كانوا يعبدون الطبيعة ومظاهرها ؟

ولكنا اذا اعترفنا مع المفكر الفرنسي بأن الأكثر لا يمكن ان يأتي من الاقل ، وان النظام لا يصدر عن الاضطراب ، ولا العقل عن الآلية ، ولا الانسان عن الحيوان ، اذن لوضعنا في أصل كل شيء وفي أصل وجودنا ، مبدأ الكمال والحق والخير ، وهو الله ، واذن لأصبح للانسانية معنى ، اذ تتجاوز الحيوانية بالعقل والحرية ، وتعمد عليها علوّاً لامتناهياً

وواجبنا ان نستعمل ذلك العقل وتلك الحرية لنتخلص ما وسعنا من الحيوانية ، ولكي نرقى حثيثاً الى الله ، لأن كرامة الانسان انما تكون في ذلك الجهد الموصول نحو اللامتناهي ونحو الكمال